

طال هذا المقال فوق ما أردنا وقد كتبناه وهذه التذكارات كلها ما زالت حديثة العهد في نفسنا. وقد صرفنا في كتابته ثلاثة ايام استعدنا فيها في ذهن جميع شؤن الولايات المتحدة وتذكاراتها شأنًا شأنًا وتذكاراتا تذكاراتًا نستخرج هذه الخلاصة منها . وكان مرتب الحروف في اثناء ذلك يغضب ويصبح ويطلب النعمة كأنه ظن ان درس مدنية متشعبة الاصول والفروع عظيمة الاثر والعين كالمدينة الاميركية مما يسهل استخراجها وتسطيره في ساعة او يوم . وبعد مراجعتنا في ذهننا شؤن اميركا كلها حين كتابة هذا الفصل لم يلد لنا شيء كطالعة وداعنا لا ميركا الذي كتبناه في الطريق بعد الرحيل عنها وهو خطاب الى تمثال الحرية العظيم المنصوب في مرفاء نيو يورك يستقبل الواردين و يودع الصادر بنور القبس المرفوع بيده الهائلة وقد مرّت بنا السفينة امامه حين خروجها بنا من المرفاء (١) وقد ضاق المجال عن نشر هذا الوداع في هذا الجزء . فموعدنا به الجزء التالي ان شاء الله .

عقد المسائل الاجتماعية

أثار الكلام فيها سعادة احمد فتحي باشا زغلول وكيل
نظارة الحفانية بكتابه الجديد (روح الاجتماع)

بحث هذا وقته

—8338—

اهدى الينا جناب الفاضل خليل بك صادق صاحب (مطبعة الشعب ومكتبته ومسامراته) نسخة من كتاب (روح الاجتماع) الذي ظهر في الشهر الماضي وهو من تأليف العالم الدكتور غوستاف لوبون الفرنسي وقد عر به سعادة الفضال احمد فتحي باشا زغلول وكيل نظارة الحفانية . وقد أذكرنا ظهور هذا الكتاب العلمي النفيس معرباً بقلم سعادة وكيل نظارة الحفانية قولاً قاله افلاطون في (جمهوريته) وهو : ان اسعد الامم الامة

(١) كتبنا هذا الخطاب على طريقة (الخطبة لدى شلالات نياغرا) التي نشرناها في الجزء الثامن للسنة السابقة

التي يحكمها العلماء والفلاسفة . وقد رمى افلاطون في كتابه الى تأييد هذه الفكرة وجعلها مدار كلامه ومنتهى غرضه . ومن علم ان كتاب سعادة فتحي باشا الجديد هو سابع كتاب له باللغة العربية وقد وجد فرصة للاشتغال باخراجه الى لغتنا مع ماله من شواغل الوزارة والحكومة فلا يتألك ان يتذكر قول افلاطون هذا .

✽ ماراً بناه في باريز من روح الجماعات ✽ ومن غرائب الاتفاق ان نجد في وجهنا في الاسبوع الذي وصلنا فيه الى مصر كتاباً كهذا الكتاب . فاننا في اثناء رحلتنا اطلنا البحث والتفكير غير مرة في موضوعه حين مشاهدتنا آثار شعوب الارض وآخر مرة كانت في باريز حيث اقمنا فيها ستة اسابيع صرفنا جانباً عظيماً منها في غشيان مجتمعات (الجماعات) التي هي موضوع كتاب سعادة فتحي باشا وكانت يومئذ قضية فرر قائمة في اوروبا على ساق وقدم وجماعات من الفرنسيين يعقدون الاجتماع تلو الاجتماع لاقامة الحجة على سجنه ومحاكمته . فحضرنا جلساتهم وتنا بين صفوفهم وهم الوف الوف في نادي فومال ينادون ويدعون وينشدون وهبت علينا (روحهم) في اثناء مناداتهم وانشيدهم الثورية هبوباً نقشعر له الابدان . وسمعنا خطب غلاتهم ونخص منهم بالذكر (هرفه) زعيم الاشتراكيين الثوريين الذي كنا نتوق الى استماعه لانه أحدث اثراً في شعوب أوروبا بمبادئه الغربية التي نشرها وتابعه كثيرون فيها والتي اذا نفذت خربت الهيئة الاجتماعية الحاضرة واقامت هيئة جديدة الله اعلم بنتيجتها . ولعل هذه المبادئ وامثالها مما هو اقل غلواً منها (كمباي ، مركس و بيل وجوريس وكسد) هي التي جعلت الدكتور غوستاف لوبون يكتب كتابه (روح الاجتماع) الذي نحن الآن في صده لانه ظهر لنا ان فصول الكتاب بمنزلة رد عليها . راجع الفصل الثاني في (مشاعر الجماعات واخلاقيها) والفصل الثالث في (قواد الجماعات وطرقهم في الانقاع) . فان الصور المرسومة فيهما صور حقيقية كدنا لنسها بيدنا في اثناء تلك الاجتماعات . هذا بقطع النظر عن طبيعية حكم المؤلف عليها .

وفي الحقيقة ان سعادة فتحي باشا زغلول ذو فضل عظيم في توجيهه بكتابه الجديد نظر الجمهور الشرقي الى هذه المسألة التي هي عقدة المسائل الاجتماعية . فان هذا وقت المبحث فيها بينما الشرق يتخض بالم وعناء في هذا الطور من تأريخه ليلد (المستقبل) الذي نرجو ان يكون عظيماً باذن الله . والمستقبل انما يصاغ من افكار الجيل الحاضر وآرائهم نعي افكار قاداتهم وحكامهم واهل الرأي فيهم فضلاً عن (روح جماعاتهم) كما يقول غوستاف لوبون . فمن سداد الرأي ان ييسر للجمهور الشرقي منذ

الآن — بل الآن خاصة — جميع الآراء والمذاهب العلمية والاجتماعية التي تساعده في تكوين مستقبله واثارة طريقه .

﴿ كلمة حاكم ﴾ عرب سعادة العرب الكتاب ولم يبد رأياً في موضوعه . وكل ما كتب فيه من عنده هذه العبارة الجميلة في مقدمة صغيرة « طلب مني ان اضع مقدمة تشرح بعض موضوع الكتاب وتبين طرقاً مما اشتمل عليه فترددت كثيراً ثم رأيت ان اترك الشرح والبيان للقراء انفسهم واذا كنت نقلت الكتاب الى العربية نقلاً صادقاً صحيحاً فان معانيه تنساب في نفس قارئه من دون احتياج الى شرح ولا رجوع الى بيان » وبديهي ان مؤلفاً ومعرّباً يشغل منصباً في الحكومة من اعظم مناصب القطر المصري لا يجوز لنفسه ان يقول في موضوع كهذا الموضوع اكثر مما قال .

﴿ خلاصة الكتاب ﴾ غرض المؤلف في هذا الكتاب ان يثبت ان هذا الزمن زمن سلطة الجموع (او الجماعات) وانه اشد الازمنة حرجاً في تاريخ البشرية وان تلك السلطة سلطة الجموع نشأت عن امرين الاول « تهديم المعتقدات الدينية والسياسية والاجتماعية التي تكون منها عناصر المدنية الحاضرة . والثاني قيام احوال جديدة ونشوء افكار جديدة في الحياة تولدت كلها من الاكتشافات العصرية العلمية والصناعية » وانه « لما كان تهديم الافكار القديمة لم يتم فلم نزل قوتها وكانت الافكار التي ستحل محلها في طور تكونها كان الزمن الحاضر زمن تحول وفوضى » وانه يعسر التكهن « بما قد يتولد من هذا الوقت وما هي الافكار الاساسية والمبادئ الاولية التي سيقوم عليها بناء الامم التي تخلفنا » ولكن الذي نراه منذ الساعة ان جميع المعتقدات والسلطات اخذت تنداع وتخطم الا سلطة الجموع التي لا يهددها طاري . بل هي تنظم وتنمو . وعليه فالدور الذي نحن قادمون عليه (دور الجماعات) لا محالة .

وان تلك الجماعات أصبحت قوة تدرك منافعها ومالها من القوة والسلطان ولذلك أنشأت السنديكات (جمعيات العملة والمأجورين) التي تخضع لها السلطات واحدة بعد الاخرى وبورصات العمل (التي هي غير البورصات التجارية لانها خاصة بالعملة وفيها مجتمع جمعياتهم وفروعها) . وان السنديكات وبورصات العمل تطمح الى التسلط على العمل والعملة واجورهم وتطلب (تحديد ساعات العمل ونزع ملكية (كذا) (١) المعادن والسكك

(١) ستري في مايلي بياناً يثبت ان حضرة المؤلف الدكتور لوبون لم ينصف في تلخيص هذه المطالب بل بترها بترّاً لتأييد حجته على أهلها ودعم رأيه .

الحديدية والمعامل والمصانع والاطيان وتوزيع الثروات بين جميع الناس على السواء (كذا) واحلال الطبقات الوضيعة محل الطبقات الرفيعة وغير ذلك)

فهذا السبب « استولى الملح على الكتاب الذين لهم منزلة لدى الطبقات المتوسطة في الامم وخشوا عاقبة ذلك السلطان فولوا وجوههم قبل الكنيسة مستصرخين سلطانها الادبي وتأثيرها الروحي بعد ان بالغوا في احتقارها وغالوا في اهلان جانبها . ونادوا بافلاس العلم في طريقة تهذيب النفوس . وفات اولئك المتدينين من جديد ان الوقت قد فات وانه ليس في طاقة البشر ولا مما تتعلق به القدرة الالهية جعل مياه الانهار تصب في بنايعها . وما افلس العلم ولا ذنب له في فوضى الافكار التي انتشرت ولا في سلطة الجماعات التي تنمو وسط تلك الفوضى » وانما الذنب « للايدي الطائشة التي ازلت بالتدريج جميع الحواجز التي كانت تمنع من طغيان الجماعات » « توجد علامات عامة ظاهرة في جميع الامم تدل على سرعة نمو سلطان الجماعات نمواً لارجاء في وقوفه آجلاً ونحن خاضعون لحكمه حاملون كل ما أنتجه بالقهر عنا فكل قول فيه باطل لا فائدة منه ومن الجائز ان تولى الجماعات قياد الامم أن يكون خاتمة ادوار مدنية الغرب فيرجع الى الانعاس في اودية الفوضى »

هذه خلاصة فكرة المؤلف وما بقي من الكتاب فصول شرح فيها هذه الفكرة بعلم عزيز وبيان ضاف شرحاً بناه على مشاهداته ومطالعاته .

﴿ من هم الجماعات ﴾ ولا بد ان القارىء يتساءل من هم الجماعات التي صعقها جناب الدكتور غوستاف لوبون هذه الصعقة في كتابه . أهى الشعب ؟ كلا فانه يقول فيه ان (روح الشعب تمثل حالة الحضارة واما روح الجماعات فتمثل حالة الممجية) (الصفحة ١٩٩) ولعل المؤلف احسن الظن بالشعب هذا الاحسان اولا لئلا يتهم بالتعامل على شعب باسره والرجوع الى مبداء الاستبداد والاستعباد وثانياً ليقول ما قاله في الصفحة ٩٩ وهو ان التقاليد ضرورية للبيئة الاجتماعية وغني . عن البيان ان الشعب مصدر هذه التقاليد وهي خلاصته وروحه كما قال المؤلف كما انه غني عن البيان ان هذه التقاليد هي مستند المحافظين في كل شأن من شؤون الحياة وحجتهم الكبرى على خصومهم . وقد اوجد المسيو موريس باراس الفرنسي مذهباً له خاصاً بها فراج بعض الرواج لدى طالبي السدود والحدود لصد تيار الآراء الحديثة . ومن الاسف ان نرى انهم لا يكونون على الدوام مخطئين في التمسك بها من بعض الوجوه وفي بعض الاطوار ..

وانما عرّف المؤلف مراده بالجماعات في قوله (الصفحة ٢٤) « الجماعات بالمعنى المتعارف

اللفيف من القوم مطلقاً وان اختلفوا جنساً وحرفة (ذكوراً كانوا او أنثى) وعلى اي نحو اجتمعوا . اما في علم النفس (وهو الذي يقصده هنا) فلها معنى آخر . ففي بعض الظروف يتولد في الجمع من الناس صفات تخالف كثيراً صفات الافراد المؤلف هو منها حيث تحتفي الذات الشاعرة وتتوجه مشاعر جميع الافراد نحو صوب واحد فتتولد من ذلك روح عامة وقتية بالضرورة الا انها ذات صفات مميزة واضحة تمام الوضوح وحينئذ يصير ذلك الجمع لفيماً مخصوصاً لم أجد لتسميته كلمة البقي من لفظ الجماعة المنظمة او الجماعة النفسية فكأن ذلك اللفيف ذات واحدة وبذلك يصير خاضعاً لناموس الوحدة الفكرية الذي تخضع الجماعات لحكمه » « وان مجرد اجتماع افراد كثيرين اتفاقاً لا يكسبهم صفة الجماعة المنظمة فان الف نفس اجتمعوا عرضاً في رجة واسعة لغير قصد معين لا يكونون جماعة عند علماء النفس بل لا بد في توفر صفات الجماعة من تأثير مؤثرات مخصوصة »

ومعنى هذا ان الجماعات المقصودة بكلامه هي (الجماعات المنظمة) ولها قصد معين وغرض معلوم تسعى اليه . فيدخل فيها سديكات العمل من صناعات وزراعت ومستخدمين ولجان الانتخاب والانتخبين انفسهم كما ترى ذلك واضحاً في الكتاب . والأحزاب السياسية في البرلمان وخارجة . وجماعة المحلفين (الجوري) لدى محاكم الجنايات والمحامين والطوائف العسكرية والدينية ورؤساءهم . وطبقات المجموع الاواسط ومجموع أهل الريف الخ الخ . ومن رأي المؤلف ان هذه الجماعات خاضعة على الدوام لحكم الاشعور و يغلب فيها انحطاط القوة العاملة فاذا تناولت رأي كل فرد من افرادها فرداً فرداً رأيتها أرقى من رأي مجموعها ولكن روح المجموع يتأثر بمؤثرات مخصوصة تجعله احط من رأي افرادها . وانها سريرة التصديق والاندفاع الى الشجاعة والشر والعبودية في ايدي زعمائها الذين يؤثرون عليها لا بالعقول بل من طريق مشاعرهم الغريزية فيجأرونها وسائلهم التأكيد والتكرار والعدوى فيظهر انهم متسلطون عليها وفي الحقيقة انهم انما يتبعونها . وانها تعد الخيالات حقائق ولا تدرك الافعال العالية الا بعد تغييرها . وانه من الخطاء الاعتقاد بان للتعليم تأثيراً فيها . وان الحكومات اصبحت لهذا السبب ضعيفة عن قيادة الافكار كما كانت نقودها في الزمن السابق . وان « النظام النيابي اقصى ما تصبو اليه الامم المتحضرة في العصر الحاضر لانه يعبر عن فكر سائد في الناس وان كان علم النفس يراه خطأ وهو ان العدد الكثير أقدر من العدد القليل على البت في الامور بالعقل والرؤية والاستقلال » وان المجالس النيابية مع كونها « احسن الوسائل التي اهتدت اليها الامم في حكم نفسها » الا

ان المؤلف لا يرى لها من الجهة العملية « الأضرارين كبيرين الاول تبذير الاموال تبذيراً لا مناص منه والثاني الترقى في تحديد الحرية الشخصية » وابان في فصل مسهب ما سبقه اليه جول سيمون الذي تهكم عليه المؤلف (في الصفحة ٢٤٦) من نقائص المجالس النيابية في كتابه (الحرية السياسية) . وختم كتابه بنعيب هائل في ثلاث صفحات باللغة أقصى حدود البلاغة الريالسمية تنبأ فيها للهيئة الاجتماعية بالفناء . ومنها قوله « علامة تلك الساعة التي لا مفرّ منها تكون على الدوام ضعف اليقين بالمقصد (Ideal) الذي اتكأت عليه روح الشعب وكلما انزوى عود هذا الخيال اندكت صروح الدين والسياسة والاجتماع التي كانت تستمد منه حياتها » « وكلما انزوى خيال الشعب (Ideal) فقد هو علة امتزاجه وداعي وحدته وموجد قوته وتمت شخصية الافراد وعظم الذكاء فيهم غير ان ذلك يصطبج بمجمل الانثرة الشخصية المفرطة محل الانثرة القومية . ووراءه انطاس الاخلاق وضعف القدرة على العمل » « واذا تمّ فقدان الخيال تمّ فقدان روح الامة فتعود خليطاً من الناس كل يعمل على شاكلته وترجع الى ما كانت عليه منذ بدايتها جماعة لها منها جميع الصفات الوقتية فلا شعور ولا أمل . هنالك تنعدم اساطين المدنية وتسمي هدفاً لحوادث الاتفاق وتصير العامة سلطانة في الناس وتبدو طلائع المتوحشين » ومعنى هذا ان الشعوب انما تتكون (بايديال) تتخذها لها وتعظم باتباعها هذا (الايديال) فاذا تركته سقطت وفنيت وروح الجماعات وسلطتهم اشد العوامل في اسقاط هذا (الايديال) — هذه خلاصة فكرة المؤلف في ثلاثة أسطر .

✽ رد اهل المذهب الآخر ✽ لان تذكر اين قرأنا عن المؤلف الدكتور غوستاف

لوبون انه قال عن نفسه ان أحد أصدقائه كتب اليه فقال انه اي الدكتور لوبون يخالف في كتاباته كل ما هو معروف . وعليه فابحاث المؤلف وآراؤه لا تخرج عن كونها معارضة في مبادئ المدنية الحاضرة واصولها . وكل معارض يبائع في كلامه في اكثر الاحيان ليحدث اثرأ شديداً في نفوس سامعيه او قرائه . ولكن هذه المعارضة غاية في الفائدة في هذا الزمن للسبب الذي أشرنا اليه آنفاً وخاصة في شأن كهذا الشأن يحتمل افراط البشرية فمن الصواب ان ينهض حيناً بعد حين رجل كالمؤلف وينعيب بينهم ذلك التعيب الهائل بصوت ارفع من الاصوات التي نسمعها كل يوم في جرائد المحافظين والاجتماعيين في اوربا واميركا .

ذلك لان لهذه الآراء التي بسطها المؤلف دعاة كثيرين اليوم في اوربا واميركا

ولكن مما نعدّه شرفاً للمؤلف انه لا يضع يده في ايديهم في جميع المسائل بل يكتب ما لهم وما عليهم كما يكتب المفكر وهو بعيد عن ضوضاء الحياة وغوغاء الناس . وقد لخصنا مذهبه آنفاً فعلينا الآن ان نلّم بطرف من مذهب الفريق الآخر الذي يعارضه المؤلف ليكون القارئ على بينة من المذهبين (ويسمع الجرسين) كما يقول الافرنج في امثالهم فتمّ الفائدة

فاهل المذهب الآخر يقولون مثلاً مايلي « ان المؤلف مصيب في قوله ان الشعوب تخط وتنقرض اذا لم يكن لها (ايدىال) أو غرض عمومي شريف تسمى اليه وتلتف حوله . ولكن الخلاف الذي بين الفريقين هو ان هذا الايدىال نفسه يتغير ويتبدل طبقاً لمبدأ القول . فقد كان الايدىال من قبل لدى الفرنسيين مثلاً ان يسفكوا دماءهم في سبيل الله والملك وهذا سبب استماتتهم في غزوة الشرق في الحروب الصليبية . ثم اصبح ايدىالهم بعد الثورة الفرنسية الاستماتة في سبيل الحرية والجمهورية فانفوا بعضهم بعضاً في بدء الثورة . فاذا كانت الاحزاب المتطرفة منهم قد تغير اليوم ايدىالها تغيراً ثالثاً واصبح همها منصرفاً الى استخلاص السلطة الاقتصادية والمالية من ايدي الافراد والشركات (بعد ان يدفع لها تمويض كاف) لوضعها في ايدي الحكومة لتتمكن الحكومة من نفع الشعب بها ورفع الطبقات الضعيفة أو الدينئة الى مرتبة ارفع تليق بالبشرية ليعيشوا معيشة البشر لا معيشة البهائم فهذا ايدىال عظيم ايضاً ككل ايدىال جميل اذا كان تحقيقه ممكناً . لما دنس احد المتطرفين المتهوسين الراية الفرنسية سرّاً في احدى الفرق العسكرية منذ نحو شهرين اذ القاها في المرحاض نكابة بالاحزاب الوطنية والعسكرية والدينئة والمالية قامت قيامة الجرائد المحافظة والمعتدلة على ذلك المتهوس والصقت فعلته بالراديكاليين والاشتراكيين وجرائدهم . فكان الصمت جواب المعتدلين من هؤلاء ولكن المتطرفين قالوا لم بصراحة ان ايدىالكم ليس بايدىالنا واذا كنتم انتم تجعلون شرفكم ووطنكم وايدىالكم في قطعة نسج ملون وتغضبون له هذا الغضب فايدىالنا نحن وشرفنا ووطننا في مبادئنا التي هي مبادئ الثورة الفرنسية ومقتضاها رفع شأن الشعب ومحاربة الاستبداد الاقتصادي والمالي الذي يضغط على حياته كما حاربنا الاستبداد السياسي من قبل . ولا نبحث هنا في صحة هذا الايدىال او فساده وانما نقول ان الجماعة التي تظهرها اظهرته جماعة العملة واحزاب الشعب من القوة والنشاط وعدم المبالاة بالعقاب والموت والاستهداف لسنابك الخيل وحراب الجند في المظاهرات والاعتصامات والتضامن الغريب الذي بينها لا تكون جماعة دون ايدىال

وانما ابديالها يختلف عن ايدىال الدكتور لوبون مثلاً . فانه هو ينظر الى الام والحكومات ومستقبلها من وجه وهي تنظر اليها من وجه آخر . ولا يلتقيان الا متى التقي الفرقدان

هذه هي النقطة الاساسية في البحث . ثم تنفرع منها نمتة . ان الجماعات والسنديكات التي أشار اليها الدكتور لوبون هي جمهور الشعب الفرنسي كله مجتمعاً في جميعات كل جمعية لفرع من فروع حياته من اكبرها الى اصغرها وحسبك ان للتسولين في الشوارع سنديكات (١) فاذا كانت هذه الجماعات كلها لاتحسن تدبير شؤونها الخصوصية والشؤون العمومية فاشعب الفرنسي كله اذاً عاجز فاصر . وجميع اعتراضات الدكتور لوبون الموجهة الى تلك الجماعات تتوجه الى الشعب كله ولا ينقذه من هذه التهمة اطراؤه الشعب ونفاليده في سطين أو ثلاثة من كتابه . وكمن مرة ونحن نطالع هذا الكتاب قلنا ان رأي الدكتور لوبون في الشعوب رأي الذين يقولون انها ولدت اطفالاً وبقيت اطفالاً محتاجة الى وصاية الطبقات الارستوقراطية والسياسية وستبقى كذلك الى ما شاء الله . وهذا الرأي وجيه لدى كثيرين من المفكرين المخلصين فضلاً عن الذين يستفيدون منه وهو يمتثل البحث والنظر . بقي ان يقال ان الاعتراض ليس على كفاءة الشعب بل على عجز (روح الجماعات) عن جودة السياسة والرئاسة لان تركيبها يوجد هذا العجز فيها . ولكن هذا القول يعارض كثيراً من الآراء التي ذهب اليها علماء العمران . قال الفيلسوف جول سيمون في كتابه (الحرية السياسية) ما خلاصته ان الافراد الذين تتألف منهم الجماعات النيابية مثلاً قد يكونون ضعفاء وكل واحد منهم على حدته غير قادر على السياسة ولكنهم اذا اجتمعوا وتألف منهم المجلس ارتقت آراؤهم وهي مجموعة عن معدل آراء كل فرد منهم . يعني ان روح المجلس تكون طبعاً ارقى من روح كل فرد من افراده واجتماعهم هو سبب هذا الارتقاء ولذلك تكون الامم التي ليس فيها افراد نوابغ قادرة على سياسة نفسها بروح تلك المجالس . اذن فمن صدق . الدكتور لوبون او السياسي المنك والفيلسوف المشهور جول سيمون الذي ليس في استطاعة احد

(١) هم متسولو مرسيليا المصابون في اجسامهم باعضاء مريضة او مبتورة انشأوا سنديكات لتولى مقاومة المتسولين الذين يُظهرون انهم مقطوعون مع انهم اصحاء الاجسام وذلك لاطلاع الحكومة على أمرهم منعاً لمزاحمتهم لهم لان التسول ممنوع شرعاً الا للماذونين

رنيه بالتزلف الى الشعب بعد ما بدا منه من دلائل استقلال الفكر قولاً وفعلاً — قولاً في ماشره في كتبه من تحذير الديموقراطية من نقائصها وفعلاً في ما فعله في عهد نابوليون الثالث اذ كسر مستقبله كسراً باحتجاجة على حكومته احتجاجاً افضى الى فصله عن السربون التي كان أحد أسانذتها وما فعله في عهد الجمهورية نفسها يوم قاوم حزبه الجمهوري نفسه في شأن المادة السابعة من قانون التعليم وهدم نفسه لديهم هدماً بهذه المقاومة ولولاها لارتقى الى رئاسة الجمهورية ومات وهو من أعظم رجالها. وهب ان رأي الدكتور لوبون هو الصحيح وراي جول سيمون هو الباطل فان رأي الدكتور لوبون في هذا الشأن يقضي فض الجمعيات والسنديكات وجعل جمهور الشعب افراداً ضعفاء بازاء الحكومة وبازاء انفسهم. وهل يجوز في هذا العصر الذي نهض فيه اكابر اهل العلم والسياسة والفلسفة ينشطون الامم الى التجمع في جمعيات تشغل كل واحدة منها بما يختص بها في دائرة اختصاصها وترقيه بتعاون افرادها عليه كما ارتقى العلم والصناعة والزراعة والتجارة بهذا التعاون نفسه هل يجوز والحالة هذه في هذا العصر ان تمت مطرقة الدكتور لوبون الشديدة الى اساس هذا البناء الذي هو بناء الحضارة الجديد لتقويضه وهدمه. وماذا يبقى للامم اذا فضت جميع جمعياتها وسنديكاتها واسيئ الظن ببرئاناتها ونعمتها — ماذا يبقى لها غير نير ملك قاهر او امبراطور جائر يوضع على عنقها لاستعبادها والاستبداد بها وبيع مرافقها ومنافعها بيع السماح. واذا كان لا يقصد هذا ولا ذاك فاي فائدة اذاً ينتج من مهاجمة اساس الهيئة الاجتماعية هذه المهاجمة سوى غرس الحيرة والشك في نفوس الناس وعلى الخصوص النابتة الجديدة وتفجيرهم حتى من الاساس الذي قامت عليه الحضارة وتثبيط همهم وافناء قواهم بهذه الحيرة والشك

وقد يكون غرض المؤلف في كتابه ان يثبت أمراً أبعد من الأمر الظاهر. وهو ان الجنس البشري غير قابل للكمال وانه كطائفة التمل متى بلغ في مدنيته حداً محدوداً عاد وتدل راجعاً ادراجه. وهذا ايضاً فيه نظر لان أهل العلم بين قائل بقابلية الكمال وقائل بعدم القابلية. واذا كان سبنسر ودروين يقولان بمذهب النشوئ والارتقاء و يضعان مبدأ « ان الافضل يُنسَخُ بما هو افضل منه » كما قال ابن رشد في كتابه نهافت التهافت فان نييتش وغيره ينكرون قابلية الكمال ويحددون ان للوجود غاية غير غاية تقوية الفرد وزيادة قوى الانسان حتى تفوق قواه الحاضرة. ولكن اذا كان الجنس البشري غير قابل للكمال وانما حظه — او سوء حظه — التراوح في اطوار التآرجح بين الانحطاط والارتقاء والصعود

والهبوط كما قال الدكتور لوبون فالأمر يكون إذاً بين يدي القوة « فمن غلب سلب ومن عزَّزَ » وهذا يجيز لطبقات الضعفاء في الامن ان تستجمع قواها وتعد جميع معداتها للمنازعة من تدعوهم خصومها وتستخلص من ايديهم ما امكنها استخلاصه . فلا جناح عليها اذاً في ما تفعله التماساً للمنافع كما انه لا جناح على خصومها اذا ابوا عليها اعطاءها ما تطلبه . فان قويت أخذت والا حُرمت

على انه قد يكون للمؤلف غرض آخر اقرب مما تقدم وهو ان السبب في وضعه كتابه هو الرغبة في التهويل مع المهولين على الحكومة الفرنسية لتقلص من ظل جمعيات العملة ومطالب الشعب وترك التساهل معهم خدمة لأهل المصالح المالية والاقتصادية . ومهما يكن من الأمر فان تلك الحرب التي تدور رحاها الآن في العالم اجمع بين المأجورين والمستأجرين او اهل العمل واهل المال والتي ذكرنا طرفاً منها منذ بضع سنوات في كتيب عنوانه (الدين والعلم والمال) انما هي حرب يخلق بالمفكر المنصف ان يقف بازائها وقفة المشفق الداعي الى اخماد نار الاحقاد والتوفيق بين تلك المصالح المختلفة والمبادئ المتعارضة ما امكن التوفيق . واذا مال بعض الميل الى الجانب الضعيف وان لم يكن على حق فبيله عدل ورحمة معاً لان شقاءهم في هذه الدنيا شديد . وما من فائدة لاحد في زيادة مسافة الخلف بين الفريقين والقاء المشيم على النار لتزداد وقوداً .

على انه اذا لم يكن من فائدة لهذا الكتاب المكتوب بعلم غزير سوى اثاره البحث في موضوعه بين الشريطين وجعل ما فيه من الآراء والافكار عبء لنا في بدء دخولنا الحياة الدستورية في المبلاد العثمانية وقبل دخولنا هذه الحياة في القطر المصري لثلا نجمع فيسوء المصير — فحسبنا هذه الفائدة . وعلى القاري العربي ان يقتنيه ويدرسه درساً ويستفيد بمعلوماته العلمية الدقيقة وان لم يشارك المؤلف في جميع آرائه . وتعريبه متين جميل للغاية جزى الله سعادة معربه المفضل خيراً عن قراء اللغة العربية واكثر بيننا من أمثاله رجال الهمة والعلم والفضل الذين هم موضع آمال الشرق وابنائهم

